من ذكرياتي المدرسية

بقلم مارون عبود

ليس من حق الطالب ان نعرض عليه شريط ذكريات مدرسية قديمة وحديثة ؟ اليس هو اليوم منصباً على دروسه حالماً بشهادته ، عروس آماله التي يرى السعادة كلها في تزاويقها وحروفها ؟

يقول الناس عموماً وذوو التلاميذ خصوصاً : اين مدارس هذا العصر من مدارس ذلك الزمان ! واين تلاميذنا من اولئك التلاميذ !

انهم طبعاً يضعون الحق على المدارس : ويبرئون انفسهم حين يقولون هذا . ولهذا انا اروي ما مر على رأسي من شؤون المدارس وشجونها ، فيقابل القارىء بين مربي ذلك الزمان ، ومربي اليوم. دق قلبي دقات عنيفة عندما قال ابي لأمي : دبّرنا له المدرسة . والتفت اليّ وقال وهو يجر كلماته : غداً تصير

وصمت بول ليستعيد انفاسه المتقطعة ، ثم انتهى الى القول:

— ولم يسمحوا لها ان تبقى الى جانبي طويلاً . وبعد اربعة ايام بلغني نعيها .

★

امي الحبيبة

لم انم تلك الليلة إلا قبيل الفجر . كانت صورتك تملأ عيني ، ويخيل إليّ احياناً انها كانت تفقد بعض ملامحها لتحل محلها ملامح اخرى فيها مشابه من وجه جاري البولوني ، جاري بول الذي اجهد الآن كثيراً لاستعادة قسمات وجهه . فقد نسيت ذلك الوجه او كدت ، منذ ان غادر الفندق ، بحثاً عن غرفة اصغر وأقل أجراً ، كما قال لي صاحب الفندق .

وانا منذ ثلاثة ايام انتظر ، يا امي ، كل مساء طرقات ذينك العكازين البطيئة الجافة على السلم الخشبي ، فأشعر بخيبة وكآبة إذ يمضي الليل فلا اسمع تلك الطرقات . كم اودّ ، يا امي ، ان اعرف موقع الغرفة الحقيرة التي نزلها أخي بول .

سهيل ادريس

الشدياق مارون . فلم أبدِ ما كان ينتظره من الارتياح فأعرض عني .

ودخلت المدرسة مع من دخلوا، فكانت الفاتحة ان اكلت قضيبين سخنين على سفح ظهري، فأرخيت لرجلي العنان فاستقبلني والدي العملاق بأحد قضبانه .

كان، غفر له الله، يعمل بنصيحة ابن سيراخ القائل: اذا احببت ولدك فهيء له القضبان حزماً حزماً . ثم قادني باذني كالعنزة الشاردة ، وهناك على اعين التلاميذ قال الكلمة المأثورة للمعلم : اللحم لك والجلد والعظم لي، ثم التفت بي وقال: فهمت يا كلب. ومنذ ذلك الحين صرت اطوع من الخاتم في الخنصر ، وانعم من المخمل .

ويوم احد الوردية الكبيرة خرجنا من الزباح ، فاذا بزمارين معهم دب يغنون له ويرقص على وقع الدف والقصب ، فعجبت من طواعية الدب واستوائه كالبشر ، يعرض العصا بين كتفيه كالناطور ، ويمشي مشية الصبايا والعجائز ، ينام ويقوم كما يكلفه صاحبه ، حتى انه يدخن بالغليون .

قلت لوالدي : الدب كيف تعلم كل هذا ؟!

فضحك وقال لي المثل المعروف : العصا تعلم الدب الرقص.

ففهمت تعريضه بي وقلت في نفسي : اذا كانت كقضبانك تعلم اكثر من دب .

هذي واحدة من ذكريات مدرستي الاولى ، مدرسة تحت السنديانة ، حيث كنا نصطف خطاً طويلاً حد حيط الكنيسة ، الاعلى فالاعلى علماً . وفي تلك المدارس كانت تسوسنا العصا استاذة الدب ، اما عقاب الجرائم الكبرى فكان (الفلق) ليتك تذوق طعمه . الفلق خشبة تكمش الساقين كمشاً كالعضّ ، لتعرض القدمين الى قضيب المعلم فينصبّ بلا شفقة . انني لم اذق هذا العلاج ، والفضل لحزمة قضبان الوالد التي إذا مات منها سيد قام سيد .

في المطهر

ما عصمة الفكر الممنّع في ذراهْ
في هدأة تجلو بصحوتها رؤاه
لا كدرة الشهوات تصخب في مداه
لا تستبيح توافه الدنيا دُناه

★

ما عفة في القلب رغم دم الشبابْ
أو رغبة طردت صغيرات الرغاب
الحائمات على لذائذَ من سراب
هي رغبة المعطاء عفّ عن الشراب
وسقى تراب بلاده يُمن السحاب
هي في عميق الحب جرح وانسكاب
يحيي البذور ، يفضُّ من عقم التراب

★

ما عفة المئناف تعصمه الذرى
والضعف يرقاها إليّ مع الكرى :
صوراً من الأمس المسفّ المزدرى
وخيالَ من شدّت رؤاي إلى الثرى
فتهافتت تلغ الهناءَ معفّرا
ربي ! أيصرعني الخيال كما ترى
والحلم يهزأ بي ويبدي المضمرا
ربي ! متى أصفو وأخلصُ جوهرا
ومتى ، متى ربي أخلّي المطهرا
وأثور في الآفاق حقاً مشهرا
أبني الحياة ذرى ، وأحياها ذرى
في يقظتي الكبرى ، وفي خَدَر الكرى

بيروت – الجامعة الاميركية **خليل حاوي**

وواحدة ثانية من ذكريات اول مدرسة داخلية : اذكر ولا انسى ابداً انني بكيت اول ليلة بكاء مراً حتى بللت دموعي مخدتي وتعكرت من الغيظ عيناي ، كما قال داود بعد فعلته تلك .. كنت كالغريب في تلك المدرسة فاستوحشت جداً ، وعللت النفس بالسلو ، فاذا بي في الغد التفت صوب بيتنا فأبكي. سخر مني رفاقي وسموني البكّاء . ولكني فقتهم درساً ، حين نسيت ملاعب صبوتي ، فنسوا ذلك الاسم .

ومرت الأيام فجاء احد المرفع فتذكرت الخروف الذي ذبحناه عام اول ، وارتمينا بشحمه ولحمه كعذارى امري القيس. تذكرت الكبة النيئة والهريسة والكروش المحشوة وجميع اصناف المآكل اللبنانية ، فبكيت في فراشي حتى درى بي احد رفاقي فقال لي : تبكي يا مارون ؟ ؟ ! فأجبته : لا . باصر بنومي . فضحك وضحكت .

وسمع الراعي ، اي الناظر العام ، فلم يزد على قوله : شر الصباح ولا خير المساء . ناموا .

ما غمضت لي عين تلك الليلة . أحاول النوم ولا قرار على زأر من الأسد . إن شبح القصاص رهيب ، اخاف على جلدي ، فكل شي إلا العصا . ولكنها مضت على خير ، هاودنا المدير بمناسبة (اوكازيون) المرفع .

ويوم عيد البشارة ٢٥ آذار ساقنا (الراعي) الى نزهة في وطا عين كفاع ، فسرحنا في تلك البطحاء المقفرة نتنافس في جمع الأزهار لدفن الصليب ، فكنت كلما قطفت زهرة التفت صوب العقبة ، ولكنني لا أرى امي مهرولة ، فأعود الى انتقاء زهراتي ، ثم أتلفت فلا أراها . ودق جرس الضيعة معلناً الظهر فانسلخ قلبي . وقفنا جميعاً لصلاة التبشير ثم قعدنا نتغدى على مرجة عين الوطا . إنها عين بلا ماء ، كما يقول المثل : اسمك عروس فلا تحزني . ولما يئست من مجيء الوالدة همست في آذان اصحابي من التلامذة : اطلبوا من الراعي ان يفرجكم على كنيسة مار روحانا . فصاح بهم : يا قليلي الأدب ، قولوا زيارة مار روحانا عليه السلام ، واخذ يسرد لهم عجائبه عن ظهر قلب ، كأنه يتلو السنكسار .

فصاحوا : لا تواخذنا يا معلمي . غلطنا ، زيارة مار روحانا عليه الف سلام .. فصاح إذ ذاك : اصطفوا . إياكم ان تتلفتوا في الضيعة يميناً وشمالاً . لا تردوا على من يسلم عليكم قبل الصلاة ، وإعطاء الديوكراسياس .

ودخلنا الضيعة اصناماً او كالأصنام ، وصلينا في كنيسة

مار روحانا صلاة طويلة . ولما خرجنا عرضنا في الساحـــة ، وصلينا ايضاً السلام الملائكي وأعطانا الديوكراسياس .

ورحنا نلعب بالطابة في تلك الساحة وجـــيران الكنيسة يتفرجون علينا من بعيد ، لا يسمح الراعي لأحد ان يخالطنا .

وبينا أنا أغمز ابن عم لي ليذهب ويخبر امي فاذا بهـا مقبلة ، تحمل على رأسها صينية الفول الاخضر ، واللوز الفريك ، والتبولة مع ورق العنب . وبعد الف رجاء سمح الراعي لرفاقي بأكل ذلك .

وطلبت والدتي مـن حضرته ان يأذنني ربع ساعة لأرى اخوتي الصغـــار فامتنع ، وقال للوالدة : القانون مقدس يا ام مارون .

فأجابت الوالدة : القانون على راسنا يا محترم ، ولكن هذا ولد ، واخوته صغـــار ، والبيت على رمية حجر ، فما عليه لو رأى اخوته ربع ساعة ؟

فأجابها : هذا لا ينفعه ، اتركيه ، قسّي قلبك يا ام مارون .

فأجابت : أهو قلب الأم حديد حتى تقسيه ؟

فأجاب وهو يشد على كل كلمة : العلم لا يسع معه شيئا . رؤية اخوته ربع ساعة تشغل باله جمعه . الله يجبرك يا ام مارون اتركي ابنك يتعلم ، الصبي شاطر ، لا تشغلي باله . قال هذا ودقّ الجرس وعجّ : « أنافان » .

لم يعزّ والدتي إلا بهذه الكلمة ، قالها وهو مشمر : تموز قرب ، ما بقي إلا ثلاثة اشهر ونصف . وأدارت امي ظهرها واظنها بكت ، أما انا فالتفت صوبها ، فزجرني الراعي كما يزجر المعاز عنزة خرجت من الصف ، فلعنت لحيته في قلبي .

قلت : تموز ، تموز ، نعم يا قارئي العزيز . كنا ندخـــل المدارس في أول تشرين الاول ، ثم لا نخرج منها إلا في منتصف تموز ، لا فرص ولا اعياد . ولا مرفع ولا من يحزنون . قلت هذا لأذكر انظمة مدارس ذلك الزمان .

اما اليوم فتموز محذوف من تاريخ السنة المدرسية ، وتشرين الاول اكلوا ثلثه ، والفرص اكثر من الهم عـلى القلب . في كل اسبوع يصبّح التلميذ اهله ويمسّيهم ، ناهيك بمخالطته الناس في المدن ، فمن قهوة الى سينما ، ومن مرقص الى سباق خيل ، الى جهنم الحمرا ...

إذا وبخ استاذ تلميذاً وقعت السماء عـلى الارض . واذا فرك المعلم اذن صبي أقعد والده شاربيه وكشّر عن نابيه وشمّر عن ساعديه ، وجاء المدرسة للمصارعة .

ولا تنس الاضرابات والتظاهرات ، فهي تذهب بقسم كبير من اوقات الطالب خصوصاً اذا كان الموسم مقبلاً ... وهناك بلية هي شر تلك البلايا . انها بلية الاذن . وقد سهلها التلفون . ففي كل يوم يزعجنا الطلاب وذووهم . واليك نموذجاً :

دق جرس التلفون — نعم ، هنا المدرسة ، من تريد الست .

— من فضلك مدير المدرسة .

— نعم ، انا المدير ، وحضرتك ؟

— انا ام فؤاد يا استاذ .

— أي فؤاد منهم ؟ عندي إكثر من عشرين فؤاد يا ست .

— فؤاد .. فؤاد عيطو . ارجوك ان تسمح له يوم السبت .

— لا اذن في التلفون .

— كيف ؟

— نعم ، هذا ممنوع .

— والسبب .

— السبب .. بسيـط .. انا لا اعرف صوتك . واحياناً تكون الأم غير ام ..

— شو تقول ، «بارول دونر» انا امه .

— امس كان عندكم يا ست ، والاذن بالشهر مرة .

ولما عرفت ان حيلتها لم تجز عليّ راحت تقهقـه وتغني بلا حياء : تزورني بالسنة مرة ..

هـذه واحدة ، وواحدة اخرى اتت من واحد لم تعجبني سيماه . اقبل عليّ يستأذن لطالب زاعماً انه جاء من عنـد ابيه الذي ينتظره ببيروت .

فبغته بالسؤال : حضرتك اخوه ؟

فأجاب : ابن عمه .

قلت : مؤكد ؟

فانتفخ وتعالى وقال : نحن لا نكذب يا استاذ .

قلت : بما انك لا تحمل رسـالة من والده ، تفضل وأرني بطاقة هويتك .

فاصفر واحمر واخضر ، وذهب متعثراً ، فكلت له التوبيخ بالمدّ ، ولكنه ولّى صابراً عليه وصبراً جميلا .

إن احوالاً كهذه تقلقل معاهد العلم وتقف حجر عـثرة في سبيل إعداد جيل صالح ، ولهذا لا ارى مستقبلاً باسماً لثقافتنا .

إذا لم يحتل العلم ، وحـده ، ساحة شعور الطالب فهيهات ان يفلح .

مارون عبود